الفصل الرابع والعشرون
فتح مكة

أثر موقعة مؤتة – نقض قريش عهد الحديبية – استعداء خزاعة النبى على قريش – سفارة أبى سفيان إلى النبى وإخفاقها – تجهيز المسلمين عشرة آلاف يسيرون إلى مكة – رجاء محمد أن يفتح أم القرى من غير إراقة الدماء – خروج العباس ومقابلته لأبى سفيان وأخذه إلى النبى بظاهر مكة – دخول المسلمين فاتحين – المكيون الذين تحرشوا بجيش خالد بن الوليد – عفو محمد عن خصومه جميعًا – تطهير الكعبة من الأصنام – إسلام أهل مكة.

أثر مؤتة واختلافه:

عاد جيش المسلمين بعد موقعة مُؤتة ولواؤهم لخالد بن الوليد. عادوا لا منتصرين ولا منكسرين ولكن راضين من الغنيمة بالإياب. وقد ترك انسحابهم بعد موت زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة، أثرًا مختلفًا أشدّ الاختلاف عند الروم وعند المسلمين المقيمين بالمدينة وعند قريش بمكة – أمَّا الروم ففرِحوا بانسحاب المسلمين وحمدوا ربهم أن لم يطل القتال بهم، مع أن جيش الروم كان مائة ألف على قول ومائتى ألف على قول آخر، فى حين كانت عِدَّة المسلمين ثلاثة آلاف. وسواء أكان فرح الروم راجعًا إلى ما أبدى خالد بن الوليد من الاستماتة فى الدفاع والقوة فى الهجوم حتى لقد تحطَّمت فى يده تسعة أسياف وهو يحارب بعد موت أصحابه الثلاثة، أم كان راجعًا إلى مهارته فى توزيع الجيش فى اليوم الثانى وإحداث ما حدث من الجلبة حتى ظنّ الروم أن مددًا جاءه من المدينة، فإن القبائل العربية المتاخمة للشام نظرت إلى فعال المسلمين بإعجاب أشد الإعجاب. وكان من ذلك أن أحد زعمائهم (فَرْوَةَ بن عَمْرو الجُذامىّ، وكان قائدًا لفرقة من جيش الروم) ما لبث أن أعلن إسلامه؛ فقُبض عليه بأمر من هرقل بتهمة الخيانة. وكان هرقل على استعداد للإفراج عنه إذا هو عاد إلى المسيحية، بل كان على استعداد أن يردَّه إلى مركز القيادة الذى كان فيه. لكن فروة أبى وأصرَّ على إبائه وعلى إسلامه فقُتِلَ. وكان من ذلك أيضًا أن ازداد الإسلام انتشارًا بين قبائل نَجْد المتاخمة للعراق والشام حيث كان سلطان الروم فى ذروته.

انتشار الإسلام فى شمال شبه الجزيرة:

وزاد فى انضمام الناس إلى الدين الجديد اضطراب أحوال الدولة البزنطية اضطرابًا جعل أحد عُمّال هِرْقَل، وقد كلف أن يدفع للجيش رواتبه، يصيح فى وجه عرب الشام الذين اشتركوا فى

الحرب: «انسحبوا. فالإمبراطور لا يجد ما يدفع منه رواتب جنده إلا بمشقة. وليس لديه لذلك ما يوزعه على كلابه». فلا عجب أن ينصرف هؤلاء عن الإمبراطور وعن جنده، وأن يزداد ضياء الدين الجديد أمامهم نورًا يهديهم إلى صدق الحقيقة السامية التى يبشر الناس بها. لذلك دخل فى الإسلام هذه الفترة ألوف من سُلَيْم وعلى رأسهم العباس بن مِرداس، ومن أشجع وغَطَفان الذين كانوا حلفاء اليهود حتى نُكب اليهود فى خَيْبَر، ومن عَبْس ومن ذُبْيَان ومن فَزَارَةَ. فكانت وقعة مؤتة بذلك سببًا فى استتباب الأمر للمسلمين فى شمال المدينة إلى حدود الشام، وفى ازدياد الإسلام عزة وقوة ومَنَعة.

لكن أثرها فى نفوس المسلمين المقيمين بالمدينة كان غير هذا الأثر؛ فهم ما لبثوا حين رأوا خالدًا والجيش معه عائدين من تخوم الشام لم ينتصروا على جيش هرقل، أن صاحوا فى وجوههم: «يا فُرَّار، فررتم فى سبيل الله». ولقد بلغ من خجل بعض رجال الجيش أن لزم بيته، كيلا يؤذيه صبيان المسلمين وشبَّانهم بتهمة الفرار.

أمَّا أثر مؤتة فى نفس قريش فكان أنها هزيمة قضت على المسلمين وعلى سلطانهم، حتى لم يبق إنسان يأبه لهم أو يقيم لعهدهم وزنًا. فلتعد الأمور كما كانت قبل عمرة القضاء. ولتعد الأمور كما كانت قبل عهد الحديبية. ولتعد قريشٌ حربًا على المسلمين ومَنْ فى عهدهم من غير أن تخشى من محمد ﷺ قِصاصًا.

نقض قريش عهد الحديبية:

وصلح الحديبية كان قد قضى أنه مَنْ أحبَّ أن يدخل فى عقد محمد وعهده فليدخل فيه، ومَنْ أحبَّ أن يدخل فى عهد قريش وعهدهم فليدخل فيه. وكانت خُزَاعةُ قد دخلت فى عهد محمد ﷺ، ودخلت بنو بكر فى عهد قريش. وكانت بين خزاعة وبنى بكر ثارات قديمة سكنت بعد صلح الحُدَيْبِية وانحياز كلّ من القبيلتين إلى فريق من المتصالحين. فلمَّا كانت مؤتة وخُيل إلى قريش أن المسلمين قُضى عليهم، خُيل إلى بنى الدِّيل من بنى بكر بن عبد مَنَاةَ أن الفرصة سنحت لهم ليصيبوا من خزاعة بثاراتهم القديمة، وحرَّضهم على ذلك جماعة من قريش منهم عِكْرِمة بن أبى جهل وبعض سادات قريش وأمدوهم بالسلاح.

استنصار خزاعة بالنبى ﷺ:

وبينما خُزاعة ذات ليلة على ماء لهم يدعى الوَتِير إذ فاجأتهم بنو بكر فقتلوا منهم، ففرَّت خُزاعةُ إلى مكة ولجئوا إلى دار بُدَيْل بن ورقاء، وشكوا إليه نَقْضَ قريش ونقضَ بنى بكر عهدَهم مع رسول الله ﷺ، وسارع عمرو بن سالم الخزاعىّ فغدا متوجهًا إلى المدينة حتى وقف بين يدى محمد ﷺ وهو جالس فى المسجد بين الناس، وجعل يقصّ ما حدث ويستنصره. قال رسول الله ﷺ: «نُصِرتَ

يا عمرو بن سالم». ثم خرج بُدَيْلَ بن ورقاء فى نفر من خزاعة حتى قدموا المدينة، فأخبروا النبىّ ﷺ بما أصابهم وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم. عند ذلك رأى النبىّ أن ما قامت به قريش من نقض عهده لا مقَابل له إلا فتح مكة، وأنه لذلك يجب أن يرسل إلى المسلمين فى أنحاء شبه الجزيرة ليكونوا على أهبة لإجابة ندائه من غير أن يعرفوا وجهته بعد هذا النداء.

مخاوف حكماء قريش:

أمَّا حكماء قريش وذوو الرأى فيها فما لبثوا أن قدّروا ما عرّضهم له عِكرمة ومَنْ معه من الشبان من خطر. فهذا عهد الحُدَيبية قد نُقِض، وهذا سلطان محمد فى شبه الجزيرة يزداد بأسًا وقوة. ولئن فكر بعد الذى حدث فى أن ينتقم لخزاعة من أهل مكة لتعرضنَّ المدينة المقدسة لأشدّ الخطر. فماذا تراهم يصنعون؟ أوفدوا أبا سفيان إلى المدينة ليُثبت العقد وليزيد فى المدة. ولعل المدة كانت سنتين فكانوا يريدونها عشرًا. وخرج أبو سفيان قائدهم وحكيمهم يريد المدينة فلمَّا بلغ من طريقه عُسْفَانَ. لقيه بُدَيْل بن وَرْقاء وأصحابه، فخاف أن يكون قد جاء محمدًا وأخبره بما حدث، فيزيد ذلك مهمته تعقيدًا. وقد نفى بُدَيْلٌ مقابلته محمدًا لكنه عرف من بعر راحلة بُدَيْل أنه كان بالمدينة لذلك آثر ألا يكون محمد أول من يلقى، فجعل وجهته بيت ابنته أمِّ حَبِيبة زوج النبىّ.

أبو سفيان بالمدينة - إخفاق سفارة أبى سفيان:

ولعلها كانت قد عرفت عواطف النبىّ ﷺ إزاء قريش وإن لم تكن تعلم ما اعتزمه فى أمر مكة. ولعل ذلك كان شأن المسلمين بالمدينة جميعًا. فقد أراد أبو سفيان أن يجلس على فراش النبىّ فطوته أمّ حبيبة. فلما سألها أبوها: أطَوَتْه رغبةً بأبيها عن الفراش، أم رغبةً بالفراش عن أبيها؟ كان جوابها: هو فراش رسول الله - ﷺ - وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحبّ أن تجلس عليه. قال أبو سفيان: والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر! وخرج مُغْضَبًا. ثم كلَّم محمدًا فى العهد وإطالة مدته، فلم يردَّ بشىء. فكلَّم أبا بكر ليكلم له النبىّ ﷺ، فأبى. فكلم عمر بن الخطاب فأغلظ له فى الرد وقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله! فوالله لو لم أجد إلا الذرَّ لجاهدتكم به. ودخل أبو سفيان على علىّ بن أبى طالب وعنده فاطمة، فعرَض عليه ما جاء فيه واستشفعه إلى الرسول؛ فأنبأه علىٌّ فى رفق أنه لا يستطيع أحد أن يرد محمدًا عن أمر إذا هو اعتزمه. واستشفع رسول قريش فاطمة أن يجير ابنُها الحسنُ بين الناس. فقالت: ما يُجير أحد على رسول الله. واشتدّت الأمور على أبى سفيان فاستنصح عليًّا؛ فقال له: والله ما أعلم شيئًا يُغنى عنك شيئًا. لكنك سيِّد بنى كِنَانَة، فقم فأجِرْ بين الناس ثم الحَقْ بأرضك؛ وما أظن ذلك مغنيًا، ولكنى لا أجد لك غيره. فذهب أبو سفيان إلى المسجد وهناك أعلن أنه أجار بين الناس. ثم ركب راحلته وانطلق ذاهبًا إلى مكة وقلبه يفيض أسى مما لقى من هوان على يد ابنته وعلى يد أولئك الذين كانوا قبل هجرتهم من مكة يرتجون منه نظرة عطف أو رضا.

عاد أبو سفيان إلى مكة؛ فقصَّ على قومه ما لقى بالمدينة وما أجار بين الناس فى المسجد بمشورة علىّ، وأن محمدًا لم يجزْ جواره. قال قومه: ويلك! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك. وعادوا فيما بينهم يتشاورون.

تجهيز المسلمين لفتح مكة:

أما محمد ﷺ فقد رأى ألا يترك لهم الفرصة حتى يتجهزوا للقائه. ولئن كان واثقًا من قوته ومن نصر الله إيَّاه، لقد كان يرجو أن يَبْغَتَ القومَ فى غِرَّة منهم، فلا يجدوا له دفعًا، فيُسلموا من غير أن تُراق الدماء. لذلك أمر الناس بالتجهيز فلمَّا تجهزوا أعلمهم أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجدِّ؛ ودعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش حتى لا تقف من سيرهم على نبأ.

كتاب ابن أبى بلتعة إلى قريش:

وبينما الجيش على أهبة السير كتب حاطِبُ بن أبى بَلْتَعة كتابًا أعطاه امرأةً من مكة مولاةً لبعض بنى عبد المطلب تسمى سارة، وجعل لها جُعْلًا على أن تبلِّغه قريشًا ليقفوا على ما أعد محمد لهم، وحاطِبٌ كان من كبار المسلمين، ولكن فى النفس الإنسانية جوانب ضعف تطغى فى بعض الأحيان عليها، وتهوى بها إلى ما لا ترضاه هى لنفسها. وما لبث محمد أن أحيط بالأمر خبْرًا. فسارع فبعث علىّ بن أبى طالب والزبير بن العوَّام فأدركا سارة فاستنزلاها، فالتمسا فى رحلها فلم يجدا شيئًا. فأنذرها علىّ إن لم تخرج الكتاب ليكشفنها. فلمَّا رأت المرأة الجِد منه قالت: أعرِضْ. فحلت ذوائب شعرها فأخرجت الكتاب منها، فردَّاها إلى المدينة. ودعا محمد حاطبًا يسأله ما حمله على ذلك؟ قال حاطب: يا رسول الله، أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله وما غيرت ولا بدلت، ولكنى كنت امرأً ليس له فى القوم من أهل ولا عشيرة، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم. قال عمر بن الخطاب دعنى يا رسول الله فلأضْرِبْ عنقه، فإن الرجل قد نافق. قال رسول الله: وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطَّلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم. وكان حاطب من أصحاب بدر. وإذ ذاك نزل قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾[1].

مسيرة جيش المسلمين:

وتحرَّك جيش المسلمين من المدينة قاصدًا مكة ليفتحها، وليضع يده على البيت الحرام الذى جعله الله مثابةً للناس وأمْنًا. تحرَّك هذا الجيش فى عدد لا عهد للمدينة به؛ فقد بعثت القبائل، من سُلَيْم ومُزَيْنَة وغَطَفَان وغيرها مَنِ انضم إلى المهاجرين والأنصار وسار معهم فى يَلَب[2] الحديد يسيلون فى فسيح الصحراء، حتى كانوا إذا ضربوا خيامهم اكتست بها رمال البيداء فما يكاد يبدو منها للناظر

(١) سورة الممتحنة آية ١.

(٢) اليلب: الدروع.

شيء. تحركوا وأغذَّ هؤلاء الألوف سيرهم، وصاروا كلما تقدموا فيه انضم إليهم من سائر القبائل مَنْ زاد عددهم وزاد منعتهم، وكلهم ممتلئ النفس بالإيمان أن لا غالب لهم من دون الله.

خروج بنى هاشم إلى النبى ﷺ وإسلامهم:

وسار محمد ﷺ على رأسهم وأكبر همه وكل تفكيره أن يدخل البيت الحرام من غير أن يهريق قطرة دم واحدة. وبلغ الجيش مرَّ الظَّهران[١] وقد كملت عِدَّته عشرة آلاف لم يصل إلى قريش من أمرهم خبر، فهى فى جَدَل مستمر ماذا تصنع لاتقاء عَدْوة محمد عليها. أما العباس بن عبدالمطلب عم النبى ﷺ فقد تركهم فى جَدلهم وخرج مع أهله حتى لقى محمدًا بالجُحْفَة[٢]. ولعل طائفة من بنى هاشم كانت بنبأ أو شِبْه نبأ من خروج النبىّ، فأرادت أن تلحق به دون أن يصيبها أذى. فقد خرج سوى العباس أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن عم النبىّ، وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة بن عمَّته، حتى اتصلا بجيش المسلمين بنيق العُقَاب، واستأذنا على النبىّ، فرفض أن يأذن لهما، وقال لزوجه أمِّ سلمة حين كلمته فى أمرهما: لا حاجة لى بهما. أما ابن عمى فقد أصابنى منه سوء. وأما ابن عمتى وصهرى فقد قال بمكة ما قال. وبلغ أبا سفيان هذا الكلام فقال: والله ليؤذَنَنَّ لى أو لآخذنْ بيد بَنىّ هذا ثم لنذهبنَّ فى الأرض حتى نموت عطشًا وجوعًا. فرقَّ محمد، ثم أذن لهما فدخلا عليه فأسلما.

العباس بن عبد المطلب - أبو سفيان يستطلع لقريش:

ورأى العبَّاس بن عبد المطلب من جيوش ابن أخيه ومن قوتَّه ما راعه وأزعجه. وهو إن كان أسلم فإن ذلك لم يُخْلِ قلبه من خشية ما يحل بمكة إذا دهمها هذا الجيش الذى لا قِبَلَ لقوَّة فى بلاد العرب به. أوَ ليس قد ترِك مكة منذ حين، وله بها من الأهل والخُلَّان والأصدقاء من لم يقطع الإسلام الذى دان به من وشائجهم! ولعله أفضى بمخاوفه هذه إلى الرسول وسأله؛ ماذا يصنع إذا ما طلبت قريش أمانه؟ ولعل ابن أخيه سُرَّ بفاتحة العبَّاس إيَّاه فى هذا، ورجا أن يتَّخذ منه سفيرًا يلقى فى قلوب القوم من قريش الرعب فيدخل مكة من غير أن يسفِك دمًا، وتظلَّ مكة حرامًا كما كانت وكما يجب أن تكون وجلس العباس على بغلة النبىّ البيضاء وخرج عليها حتى جاء ناحية الأراك، لعله يجد حطَّابًا أو صاحب لبن أو أى إنسان ذاهبًا إلى مكة، يُحمله إلى أهلها رسالة بقوَّة المسلمين وبأس جيوشهم، حتى يخرجوا إلى رسول الله فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوةً. وكانت

---

(١) على أربعة فراسخ من مكة.

(٢) ويذهب بعض كتاب السير إلى أنه لقى الجيش برابغ. أما آخرون فيقولون إن العباس ذهب إلى المدينة قبل التصميم على فتح مكة وأسلم وسار مع جيش الفتح. ويدحض كثيرون هذه الرواية ويزعمونها وضعت إرضاء للعباسيين الذين كتبت السيرة أول ما كتبت فى عهدهم. ويؤيدون رأيهم هذا بأن العباس، على نصرته لابن أخيه مذ كان بمكة، لم يتابعه على دينه، لأن العباس كان تاجرًا ومرابيًا، وكان يخشى ما يجره الإسلام على تجارته من مضرة. ويزيدون أنه لو كان العباس قد أسلم وهاجر، لكان فى مقدمة من ذهب إليهم أبو سفيان للتحدث فى إطالة مدة عهد الحديبية لقرب عهده بمكة.

قريش قد بدأت، منذ نزل المسلمون مَرَّ الظهران، تشعر بأن خطرًا يقترب منها؛ فأرسلت أبا سفيان بن حرب، وبُديْل بن ورقاء، وحكيم بن حزام قريب خديجة، يتنطسون الأخبار، ويستطلعون مبلغ الخطر الذى تحس قلوبها. وإن العباس ليسير على بغلة النبىّ البيضاء إذ سمع حديثًا بين أبى سفيان بن حرب وبُدَيْل بن ورقاء كذلك يجرى:

أبو سفيان : ما رأيت كالليلة نيرانًا قطُّ ولا عسكرًا.

بُدَيْل : هذه والله خُزاعة حَمَّشتها الحرب.

أبو سفيان : خزاعة أقل وأذلّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

التقاؤه بالعباس - أبو سفيان فى حضرة الرسول ﷺ:

وعرف العبَّاس صوت أبى سفيان، فناداه بكنيته قائلا: أبا حَنْظَلَةَ! وأجاب أبو سُفْيان بدوره: أبا الفضل. قال العبَّاس: ويحك يا أبا سفيان؟ هذا رسول الله فى الناس. واصباحَ قريش إذا دخل مكة عنوةً! قال أبو سفيان: فما الحيلة فداك أبى وأمى؟ فأركبه العباس فى عجز البغلة ورد صاحبيه إلى مكة وسار به. والناس إذا رأوا البغلة عرفوها وتركوها تمرُّ بمن عليها بين عشرة آلاف أوقدوا نيرانهم لتلقى الرعب فى قلب مكة وأهلها. فلمَّا مرَّت بنار عمر بن الخطاب ورآها عرف أبا سفيان وأدرك أن العباس يريد أن يُجيره، فأسرع إلى خيمة النبىّ وطلب إليه أن يضرب عنقه. قال العباس: إنى يا رسول الله قد أجرته. إزاءَ هذا الموقف فى تلك الساعة من الليل، وبعد مناقشة لا تخلوا من حِدَّة بين العباس وعمر قال محمد: إذْهَبْ به يا عباس إلى رَحْلك، فإذا أصبحت فأتنى به. فلما كان الصباح، وجىء بأبى سفيان فى حضرة النبىّ وبمسمع من كبراء المهاجرين والأنصار، جرى الحوار الآتى:

النبىّ : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟!

أبو سفيان : بأبى أنت وأمى! ما أحلمك وأكرمَك وأوصلك! والله لقد ظننت لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئًا بعدُ.

النبىّ : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله؟!

أبو سفيان : بأبى وأمى! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أمَّا والله هذه فإن فى النفس منها حتى الآن شيئًا!

فتدخل العباس موجهًا القول إلى أبى سفيان أن يسلم ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن تُضْرَبَ عنقه. ولم يجد أبو سفيان أمام هذا إلا أن يسلم. فتوجَّه العبَّاس بالقول إلى النبىّ عليه السلام: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئًا. قال رسول الله: «نَعَمْ! مَنْ دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومَنْ أغلق بابه فهو آمن، ومَنْ دخل المسجد فهو آمن».

أمصادفة حدث ذلك كله؟

هذه الوقائع واردٌ عليها اتفاق المؤرخين وكتاب السيرة جميعًا إلا أن بعضهم يُسائل: أهى قد حدثت كلها بمحض المصادفة؟ فخروج العباس إلى النبىّ كان قصده منه أن يذهب إلى المدينة فإذا هو يلقى جيوش المسلمين بالجُحْفة، وخروج بُدَيْل بن ورقاء مع أبى سفيان بن حرب كان لمحض الاستطلاع، مع أن بديلا ذهب قبل ذلك إلى المدينة وقصَّ على النبىّ ما لقيت خزاعة وعرف من النبىّ أنه ناصرُها، وخروج أبى سفيان كان جهلا منه بأن محمدًا قد سار لغزو مكة! أم أن شيئًا من الاتفاق، قليلًا أو كثيرًا، كان قد حدث قبل ذلك، وأن هذا الاتفاق هو الذى أخرج العباس للقاء محمد، وأن هذا الاتفاق هو الذى جمع بين العباس وأبى سفيان، وأن أبا سفيان كان قد وثق، منذ ذهب إلى المدينة ليُمدّ فى عهد الحديبية ورجع صفر اليدين، بأن لا سبيل لقريش إلى ردّ محمد، وأيقن أنه إذا مهد للفتح السبيل فستبقى له رياسته فى مكة ومقامه الكبير فيها، وأن الذى ربما كان وقع عليه الاتفاق من ذلك لم يتعدّ محمدًا والأشخاص الذين يعنيهم الأمر، بدليل ما هَمّ به عمر من قتل أبى سفيان؟ من المغامرة أن نحكم. لكنا نستطيع أن نقرر - مطمئنة نفوسنا - أنه سواء أكانت المصادفة هى التى ساقت ذلك كله أم أن شيئًا من الاتفاق قد وقع عليه، فالحالان تدلّان على دقة محمد ومهارته فى كسب أكبر موقعة فى تاريخ الإسلام من غير حرب ومن غير إراقة دماء.

عدة محمد ﷺ لدخول مكة:

لم يمنع إسلام أبى سفيان محمدًا ﷺ أن يتخذ لدخول مكة كل ما لديه من أهبة وحذر. وإذا كان النصر بيد الله يؤتيه من يشاء، فإن الله لا يؤتى النصر إلا من أعدَّ له كل عُدَّته، واحتاط لكل دقيقة وجليلة قد تقف فى سبيله، لذلك أمر أن يحبس أبو سفيان بمضيق الوادى عند مدخل الجبل إلى مكة، حتى تمرَّ به جنود المسلمين فيراها ليحدث قومه بها عن بينة، ولكى لا يكون فى إسراعه إليهم خيفة مقاومة أيًّا كان نوعُها. ومرّت القبائل بأبى سفيان، فما راعه منها إلا الكتيبة الخضراء يحيط بمحمد فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدَق من الحديد. فما عرف أبو سفيان أمرهم قال: يا عباس! ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة. والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيمًا! ثم انطلق إلى قومه يصيح فيهم بأعلى صوته: يا معشر قريش! هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبَلَ لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

وسار محمد ﷺ فى الجيش، حتى إذا انتهى إلى ذى طوى، ورأى من هناك مكة لا تقاوم استوقف كتائبه، ووقف على راحلته، وانحنى لله شاكرًا، أن فتح الله عليه مَهْبِطَ الوحى ومقرّ البيت الحرام ليدخله والمسلمين آمنين مطمئنين. وفيما هو كذلك طلب أبو قُحافة، ولم يكن قد أسلم كابنه، إلى

حفيدة له أن تظهر به على أبي قُبَيْس، وكان قد كُفَّ بصره. فلما ارتفعت به الجبل سألها ما ترى؟ قالت: أرى سوادًا مجتمعًا. قال: تلك الخيل. ثم قالت: قد والله انتشر السواد. فقال: تلك الخيل دفعت إلى مكة، فأسرعى بى إلى بيتى. ولم يصل إلى بيته حتى كانت الخيل قد زحفت وتلقَّته قبل بلوغه إيَّاه.

توزيع الجيش:

شكر محمد الله أن فتح عليه مكة، ولكنه ظلَّ مع ذلك متَّخذًا حِذْرَه؛ فقد أمر أن يفرق الجيش أربع فرق، وأمرها جميعًا ألَّا تقاتل وألا تسفك دمًا إلا إذا أُكرهت على ذلك إكراهًا واضْطُرَّت إليه اضطرارًا. وجعل الزُّبير بن العوَّام على الجناح الأيسر من الجيش وأمره أن يدخل مكة من شمالها، وجعل خالدَ بن الوليد على الجناح الأيمن وأمره أن يدخل من أسفل مكة، وجعل سعد بن عُبَادَةَ على أهل المدينة ليدخلوا مكة من جانبها الغربيّ. أما أبو عبيدة بن الجرَّاح فجعله محمد على المهاجرين، وسار وإيَّاهم ليدخلوا مكة من أعلاها فى حذاء جبل هند، وفيما هم يتأهبون سمع بعضهم سعد بن عُبَادَةَ يقول: «اليومُ يومُ المَلْحَمَة، اليومَ تَسْتَحِلُّ الحُرْمة...» وفى ذلك من نقض أمر النبى ألَّا يقتل المسلمون من أهل مكة ما فيه. لذلك رأى النبيّ حين بلغه ما قال سعد أن يأخذ الراية منه وأن يدفعها إلى ابنه قيس، وكان رجلا ضخمًا، لكنه كان أهدأ من أبيه أعصابًا.

دخلت الجيوش مكة فلم يلق منها مقاومة إلا جيش خالد بن الوليد؛ فقد كان يقيم فى هذا الحيّ من أسفل مكة أشدّ قريش عداوةً لمحمد، ومن اشتركوا مع بنى بكر فى نقض الحُدَيْبية بالغارة على خُزاعة. هؤلاء لم يُرضهم ما نادى به أبو سفيان. بل أعدّوا عُدّتهم للقتال، وأعدّ آخرون منهم عُدتهم للفِرار. وقام على رأسهم صَفْوان وسهَيْل وعِكرمة بن أبى جهل. فلمَّا دخلت فرقة خالد أمطروها نبالهم، لكن خالدًا لم يلبث فرَّقهم، ولم يُقْتَلْ من رجاله إلا اثنان ضلّا طريقهما وانفصلا عنه. أمَّا قريش ففقدوا ثلاثة عشر رجلا فى رواية، وثمانية وعشرين فى رواية أخرى. ولم يلبث صفوان وسهيل وعكرمة حين رأوا الدائرة تدور عليهم أن ولَّوْا الأدبار، تاركين وراءهم من حرَّضوهم على المقاومة يَصْلَون بأس خالد وبطش أبطاله معه. وبينما كان محمد على رأس المهاجرين يرقَى فى مُرْتَفَع ينزل منه إلى مكة مطمئن النفس لفتحها فى سكينة وسلم بَصُر بأمّ القرى وبما فيها جميعًا، وبَصُر بتلماع السيوف أسفل المدينة وبمطاردة جيش خالد لمن هاجموهم. هنالك أسف وصاح مُغْضَبًا يذكر أمره ألا يكون قتال. فلمَّا علم بما كان، ذكر أن الخِيرَةَ فيما اختاره الله.

دخول مكة:

ونزل النبيّ ﷺ بأعلى مكة قُبالة جبل هند، وهنالك ضُربت له قبَّة على مقربة من قبرى أبى طالب وخديجة. وسئل: هل يريد أن يستريح فى بيته؟ فأجاب: كلا! فما تركوا لى بمكة بيتًا. ودخل إلى القبَّة يستريح وقلبه مفعم بشكر الله أن عاد عزيزًا منتصرًا إلى البلد الذى آذاه وعذَّبه وأخرجه

من بين أهله ودياره، وأجال بصره فى الوادى وفى الجبال المحيطة به، فى هذه الجبال التى كان يأوى إلى شِعابها حين يشتد به أذى قريش وتشتدّ به قطيعتها، فى هذه الجبال، ومن بينها حِراء حيث كان يتحنَّث حين نزل عليه الوحى أن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الذِى علَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[١].

أجال بصره فى هذا الجبال وفى الوادى مبعثرة منازل مكة فيه يتوسَّطها البيت الحرام، فبلغ من خضوعه لله أن ترقرقت فى عينه دمعة إسلام وشكر للحق لا حقَّ إلا هو، إليه يرجع الأمر كله. وشعر ساعتئذ أن مهمَّة القائد قد انتهت، فلم يُقم بالقبَّة طويلا بل خرج وامتطى ناقته القصواء وسار بها حتى بلغ الكعبة، فطاف بالبيت سبعًا على راحلته يستلم الركن بِمِحْجَن[٢]. فى يده. فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة ففتح الكعبة، فوقف محمد على بابها وتكاثر الناس فى المسجد، فخطبهم وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿يَـأَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٣].

ثم سألهم ﷺ: « يا معشر قريش، ما ترون أنى فاعل بكم؟» قالوا: « خيرًا، أخٌ كريم وابن أخ كريم!». قال ﷺ: « فاذهبوا فأنتم الطلقاء». وبهذه الكلمة صدر العفو العام عن قريش وعن أهل مكة جميعًا.

العفو العام:

ما أجمل العفو عند المقدرة! ما أعظم هذه النفس التى سمت كل السموّ، فارتفعت فوق الحقد وفوق الانتقام، وأنكرت كل عاطفة دنيا، وبلغت من النبل فوق ما يبلغ الإنسان! هؤلاء قريش يعرف محمد منهم من ائتمروا به ليقتلوه، ومَنْ عذّبوه وأصحابه من قبل ذلك. ومَنْ قاتلوه فى بَدْر وفى أُحُد، ومن حصروه فى غزوة الخندق، ومن ألَّبوا عليه العرب جميعًا، ومن لو استطاعوا قتله وتمزيقه إرْبًا إرْبًا لما ونَوْا فى ذلك لحظة! هؤلاء قريش فى قبضة محمد وتحت قدميه، أمره نافذ فى رقابهم، وحياتهم جميعًا معلَّقة بين شفتيه، وفى سلطانه هذه الألوف المدجَّجة بالسلاح تستطيع أن تبيد مكة وأهلها فى رجع البصر! لكن محمدًا ﷺ! لكن النبى ﷺ! لكن رسول الله ﷺ ليس بالرجل الذى يعرف العداوة أو يريد بها أن تقوم بين الناس. وليس هو بالجبَّار ولا بالمتكبر. لقد أمكنه الله من عدوّه، فقدر فعفا، فضرب بذلك للعالم كله ولأجياله جميعًا مثلًا فى البرّ والوفاء بالعهد، وفى سموّ النفس سُمُوًّا لا يبلغه أحد.

---

(١) سورة العلق الآيات من ١ إلى ٥.
(٢) المحجن: عصا منعطفة الرأس.
(٣) سورة الحجرات آية ١٣.

الصور فى الكعبة:

ودخل محمد ﷺ الكعبة فرأى جدرانها صُوّرت عليها الملائكة والنبيون، ورأى إبراهيم مصوّرًا فى يده الأزلام[١] يستقسم بها، ورأى بها تمثال حمامة من عِيدان فكسرها بيده وألقاها إلى الأرض، أمّا صورة إبراهيم فنظر محمد إليها مَليًّا وقال: قاتلهم الله ! جعلوا شيخًا يستقسم بالأزلام ! ما شأن إبراهيم والأزلام ! ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين. أمّا الملائكة الذين صُوّروا نساء ذات جمال، فقد أنكر محمد صورهم أن ليست الملائكة ذكورًا ولا إناثًا. ثم أمر بتلك الصور كلها فطُمست. وكانت حول الكعبة الأصنام التى كانت تعبدها قريش من دون الله، قد شُدّت إلى جُدُرها بالرصاص، كما كان هُبَل فى داخل الكعبة؛ فجعل محمد ﷺ يشير إلى هذه الأصنام جميعًا بقضيب فى يده وهو يقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[٢].

تطهير الكعبة من الأصنام:

وكُبَّتِ الأصنام على وجوهها وظهورها، وطُهر البيت الحرام بذلك منها. وأتمّ محمد بذلك فى أوّل يوم لفتح مكة ما دعا إليه منذ عشرين سنة، وما حاربته مكة أشدَّ الحرب فيه. أتمّ تحطيم الأصنام والقضاء على الوثنية فى البيت الحرام بمشهد من قريش، ترى أصنامها التى كانت تعبد ويعبد آباؤها، لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا.

مخاوف الأنصار وتبديدها:

ورأى الأنصار من أهل المدينة ذلك كله، ورأوا محمدًا ﷺ يقوم على الصفا ويدعو، فخيل إليهم أنه تاركٌ المدينة إلى وطنه الأول رقد فتحه الله عليه، وقال بعضهم لبعض: أتَرَوْن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟ ولعلهم كانوا على حق فى مخاوفهم. فهذا رسول الله ﷺ، وبمكة البيتُ الحرام بيت الله، وبمكة المسجدُ الحرام. لكن محمدًا ما لبث حين أتم دعاءه أن سألهم ما قالوا ؟ فلمّا عرف بعد تردُّد منهم مخافتهم قال: « معاذَ الله ! الْمَحْيا مَحْياكم والممات مماتكم». فضرب بذلك للناس مثلًا فى البرّ بعهده فى بيعة العقبة، وفى الوفاء لأنصاره الذين وقفوا ساعة الشدة إلى جانبه، برًّا ووفاء لا يُنسيهما وطن ولا أهل ولا تُنسيهما مكة البلد الحرام.

---

(١) الأزلام (واحدها زلم بفتحتين، وبضم ففتح) هى القداح التى كانت فى الجاهلية مكتوب عليها الأمر والنهى: افعل ولا تفعل. كان الرجل منهم يضعها فى وعاء، فإذا أراد سفرًا أو زواجًا أو أمرًا مهما أدخل يده فى الوعاء بعد إجالتها وتحريكها فأخرج منها زلمًا، فإن خرج الأمر مضى لشأنه، وإن خرج النهى كف عما اعتزم ولم يفعله. والاستقسام بها معرفة قسم الإنسان، أى حظه ونصيبه.

(٢) سورة الإسراء آية ٨١.

ولمَّا أن طهَّرت الكعبة من أصنامها، أمر النبيّ ﷺ بلالاً فأذّن فوقها، وصلى الناسُ بإمامة محمد ﷺ. ومن يومئذ إلى يومنا الحاضر، مدى أربعة عشر قرنًا مضت لا تنقطع، وبلال وخلفاء بلال من بعده ينادون بالأذان، كلّ يوم خمسَ مرات من فوق مسجد مكة. ومدى أربعة عشر قرنًا مضت من يومئذ يؤدّى المسلمون فرض الصلاة لله والصلاة على رسوله، متوجهين إلى الله بقلوبهم وعقولهم، مستقبلين هذا البيت الحرام الذى طهَّره محمد يوم الفتح من أوثانه وأصنامه.

وأذعنت قريش لما حلَّ بها، واطمأنت لعفو محمد ﷺ عنها، وأقامت تنظر إليه وإلى المسلمين من حوله يعبون كلها دهش وإعجاب يمازجها الخوف والحذر. لكن طائفة منها عدَّتُها سبعة عشر رجلا، كان محمد ﷺ قد استثناها من رحمته وأمر ساعة دخول مكة أن يُقْتَل رجالها ولو وُجدوا متعلقين بأستار الكعبة، كان قد آثر بعضها الاختفاء ولاذ بعضها بالفرار. ولم يكن قرار محمد ﷺ قتلهم لحقد منه أو غضب عليهم؛ فهو لم يكن يعرف الحقد، ولكن لجرائم كبيرة ارتكبوها. فأحدُهم عبد الله بن أبى السّرح كان قد أسلم وكان يكتب لمحمد ﷺ الوحى، فارتدّ مشركًا إلى قريش زاعمًا أنه كان يزيف الوحى حين يكتبه. وعبد الله بنَ خطلَ كان قد أسلم ثم قتل مولى له وارتد مشركًا وأمر جاريتيه فَرْتَنَى وصاحبتها فكانتا تغنيان بهجاء محمد، فأمر بقتلها معه. وعِكرمة بن أبى جهل وكان من أشدّ الناس لَدَدًا فى خصومة محمد ﷺ والمسلمين خصومة لم تهدأ حتى بعد فتح مكة ودخول خالد بن الوليد من أسفلها.

العفو عمن أمر النبى ﷺ بقتلهم خلا أربعة قتلوا فى جرائمهم:

أمر محمد ﷺ بعد دخول مكة ألا يُسْفَكَ بها دم أو يُقتل فيها أحد غير هذه الطائفة. لذلك اختفى رجالها ونساؤها وفرَّ منهم من فرَّ. فلمَّا استقر الأمر وهدأت الحال ورأى الناس من فسحة صدر الرسول ومن عفوه الشامل ما رأوا، طمع بعض أصحابه فى أن يعفو حتى عن هؤلاء الذين أمر أن يُقتَلوا. فقام عثمان بن عفّان، وكان أخا ابن أبى السَّرْح للرضاعة، حتى أتى به النبىّ فاستأمن له. فصمت محمد طويلاً، ثم قال: نعمْ، وأمَّته. وأسلمت أمُّ حكيم بنت الحارث بن هشام زوج عكرمة بن أبى جهل الذى فرَّ إلى اليمين واستأمنت له محمدًا ﷺفأمَّنه، فخرجت فى طلبه وجاءت به. وعفا محمد ﷺ كذلك عن صَفْوان بن أميَّة وكان قد صحب عكرمة فى فراره إلى ناحية البحر يستقلّانه إلى اليمن، فجئ بهما والسفينة التى تحملهما على أهبة إقلاعها. وعفا محمد ﷺ كذلك عن هند زوج أبى سفيان التى مضغت كبد حمزة عم الرسول بعد استشهاده فى أُحد، كما عفا عن أكثر مَن أمر بقتلهم. ولم يقتل منهم إلا أربعة، منهم الحويرث الذى أغرى بزينب بنت النبىّ حين رجوعها من مكة إلى المدينة، ورجلان أسلما ثم ارتكبا بالمدينة جريمة القتل وفرَّا راجعين إلى مكة مرتدّين إلى الشرك، وإحدى قينتى ابن خَطَل اللتين كانتا تؤذيان النبىّ بغنائهما، وفرّت الأخرى، ثم استُؤمن لها.

تحريم مكة على الناس جميعًا:

وفى غداة يوم الفتح عثَرت خُزاعة على رجل من هُذَيْل وهو مشرك فقتلوه فغضِب النبىّ وقام فى الناس خطيبًا فقال: «أيها الناس، إن الله حرّم مكة يوم خلق السمٰوات والأرض، فهى حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة لا يحلّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا أو يعَضِد[1]. فيها شجرًا، لم تُحْلَل لأحد كان قبلى ولا تحلّ لأحد يكون بعدى، ولم تُحْلَلْ لى إلاّ هذه الساعة غضبًا على أهلها، ثم رجعت كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهدُ منكم الغائبَ. فمن قال لكم إنَّ رسول الله قد قاتل فيها فقولوا إن الله أحلَّها لرسوله ولم يُحْلِلْها لكم يا معشر خُزاعة. ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر إن نفع. لقد قتلتم قتيلاً لأدِيَنَّه. فمن قُتل بعد مقالى هذا فأهلُه بخير النَّظَرَيْن: إن شاءوا فَدمُ قاتِله، وإن شاءوا فعَقْله»[2]. ثم ودَى بعد ذلك الرجل الذى قتلت خزاعة، وبهذا الخطاب وبتصرفه الذى زاد على السماحة والعفو أمس، كسب محمد ﷺ قلوب أهل مكة بما لم يكونوا يقدّرون، فأقبلوا على الإسلام، ونادى مناد فيهم: «مَنْ كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يترك فى داره صنمًا إلا حطمه». ثم بعث جماعة من خُزاعة ليُصلحوا من العمد المحيطة بالبلد الحرام، مما دلّ أهل مكة على مالها فى نفسه من التقديس وما زادهم له حبًّا. فلميا أخبرهم أنهم خير أمّة يحبّ، وأنه ما كان ليتركهم أو يعدِل بهن ناسًا لولا أنهم أخرجوه، بلغ تعلقهم به غاية حدوده. وجاء أبو بكر بأبيه، الذى ارتقى أبا قُبَيْس يوم الزحف، يقوده حتى وقف بين يدى النبىّ. فلما رآه محمد قال: هلّا تركت الشيخ بمكانه حتى أكون أنا آتيه فيه! قال أبو بكر: يا رسول الله هو أحقّ أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت. فأجلس النبىّ ﷺ الشيخ بين يديه ومسح صدره ثم قال له: أسْلِم. فأسلم وحسن إسلامُه. وكذلك أسرتْ أخلاق النبوّة السامية هذا الشعب الذى كان ثائرًا على محمد أشدّ الثورة، والذى أصبح اليوم يُجِلّه ويقدّسه. وكذلك أسلمت قريش رجالاً ونساء وبايعت.

خالد بن الوليد فى جذيمة:

وأقام محمد ﷺ بمكة خمسة عشر يومًا ينظّم خلالها شئون مكة ويفقه أهلها فى الدين. وفى هذه الأثناء بعث السرايا للدعوة إلى الإسلام لا للقتال، ولتحطيم الأصنام من غير سفك للدماء. وكان خالد بن الوليد قد خرج إلى نَخْلة ليهدم العُزّى - وكانت لبنى شَيْبَان - فلما هدمها خرج إلى جذيمة، فلمّا رآه القوم أخذوا السلاح؛ فطلب إليهم خالد أن يضعوه فإن الناس قد أسلموا. قال رجل من جَذيمة لقومه: ويلكم يا بنى جذيمة! إنه خالد. والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق. قال له قومه: أتريد أن تسفِك دماءنا! إن الناس قد أسلموا

---

(١) يعضد: يقطع.

(٢) العقل: الدية.

ووضعت الحرب وأمن الناس. وما زالوا به حتى وضع سلاحه. عند ذلك أمر بهم خالد فغُلوا، ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم. فلمَّا انتهى الخبر إلى النبيّ رفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد». ثم بعث إليهم عليّ بن أبى طالب وقال له: اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم، واجعل أمر الجاهليَّة تحت قدميك. وخرج عليّ ومعه مال أعطاه النبيّ إياه. فلمَّا بلغ القومَ دفع الدية عن الدماء وعما أصيب من الأموال، حتى إذا لم يبق شيء من دم أو مال إلا وداه، أعطاهم بقية المال الذى بعث به رسول الله احتياطًا لرسول الله مما لا يعلم.

وفى الأسبوعين اللذين أقام محمد ﷺ بمكة عفّى على كل آثار الوثنيَّة فيها. ولم ينتقل إلى الإسلام من مناصب البيت الحرام إلا سدانة الكعبة، أقرَّها النبيّ ﷺ فى عثمان بن طلحة وأبنائه من بعده حتى يرث الله الأرض ومن عليها لا يأخذها منهم إلا ظالم، وسِقاية الحاج من زمزم جعلها لِعمه العبَّاس.

وكذلك آمنت أمّ القرى ورفعت منار التوحيد ولواءه وأضاءت العالم خلال الأجيال والقرون بنوره الوضَّاء.